دولاب فضة

حينما تلتقى ذلاّت الأرض برحمة السماء فالميزان عادل، وحينما يتسلق المذنبون حبائل التوبة طمعاً في المغفرة فالغفار واحد، فلا البشر يخلو من الخطيئة ولا السماء تُوصد أبوابها لحظة في وجه المريد، تلك هى حِكمة الحِكم وعظمة الإله الذى ألهمنا بالعقل وتفضّل علينا برحمته.

ليلة من ليالي شتاءٍ تغيّر حال أيامه كما تغيرت أشياء كثيرة، أصوات رعدها داهمت النوافذ فنالت من نافذة غرفتها، وسهم برقها اخترق الجدران بمجرد الإحساس بأنه يغزو صفحة السماء، كان نومها ثقيلاً بما لم يجعلها تستيقظ عن عمد إلا في وقت الفجر وفيما عدا ذلك كان لا استيقاظ لها إلا بمساعدة خادمتها خديجة.

ولأن دوام الحال من درب المحال ولأن الظروف الطارئة قد تُغيّر ما تعودت واعتدت عليه فقد انتفضت السيدة من نومها مستعيذة بالله من الشيطان مرددة برجفة (الطف يا رب) اتكأت بيدها على "الكومودينو"

الذى يجاور سريرها وألقت بقدمها اليمنى تتحسس الأرض وما إن لامستها قدمها حتى استعدلت ووضعت القدم الأخرى وظلت جالسة على السرير وقدماها مستقرتان على الأرض لثوان مغمضة عينيها رغم أن النور كان منطفئاً فلم تكن السيدة ممن تغمض جفونهم في وجود شعاع للضياء.

تمالكت قواها واستجمعت هدوء وثبات روحها ونهضت متحسسة الحائط حتى أشعلت المصباح ثم جلست أسفله على كرسي (فوتيه) كي يطمأن قلبها وتستعيد بعض الأمن الذى كدّره البرق والرعد، التقطت (الشال الأسود) خاصتها الذى اعتادت أن تتركه على هذا الكرسي وهى تتجه نحو سريرها، همت على مهل بفتح باب الغرفة وما إن خرجت منها حتى أغلقته بإحكام كانت السيدة تحرص على خصوصية الأشياء والأماكن حتى وإن ساد الظلام.

تحسست الحائط على مهل بيمناها وبعد أربع خطوات تعلقت بكرسي (فوتيه) آخر يجاور التليفون الأرضي ثم خطت خطوتين وفى الثالثة فتحت باب غرفة استقبال الضيوف بترقب وحذر وسارت في مواجهة الباب نحو

ست خطوات واستقرت على كرسي الصالون تحت الشباك المجاور لدولاب الفضة العتيق المصنوع من خشب الأبانوس.

إن قدّ الظلام قلبك وأخرجك من أمانك واطمئنانك إلى عالم الهلع والريبة فابحث عن دوائك فلكل داء دواء.

كان ملاذها الدائم هو غرفة استقبال الضيوف التي لا زالت تحتفظ برائحة الأيام الخوالي التي سقطت من شجرة عمرها لكنها أبداً لم تسقط من القلب والعقل، غرفة بحرية الهواء ذات شباك طويل تغيرت أخشابه لكن لم يتغير طرازه يطل مباشرة على (الجنينة) والآخر شرقي يطل على الشارع، غرفة تجاوزت الأربعين متراً احتفظت فيها السيدة بالصالون (المُدهب) الذى اشتراه أبوها في مزاد علني قالوا أنه كان من ممتلكات فاروق الأول وكان الكرسي الوحيد الذى يروقها الجلوس عليه مميز عن غيره في الارتفاع والفخامة وكأن نحاتاً قد ألقى عليه بسحر امتلكه من خبرات الأولين والآخرين في عصور مختلفة.

أسفل الشباك البحري كانت هناك مقاعد أمريكاني (سبور)، فلم يكن مسموحاً بأي تغيير في الغرفة سوى في هذا الركن وفي مواجهة ذاك

الكرسي الذى اعتادت السيدة الجلوس عليه كانت الشاشة كبيرة الحجم التي اضطرت إليها السيدة بعد أن ضعفت حدود بصرها، إلى جانب اللمبات الحديثة التي تُضاء في وجود الضيوف لكن إن خلت السيدة إلى نفسها فتكتفى بالضوء الخافت يبدو أنها كانت من عشاقه.

دولاب الفضة المجاور للكرسي الملكي المميز كان الغاية والمنى، تعود إليها السكينة إن أبصرته وتهيم في ماضيها إن تحسست ما فيه.

غداً ليس ككل الأيام بالنسبة لغيرها أكثر منها، في المساء كما اتفقوا جميعاً سيحتفلون بعيد ميلادها المائة حيث يسكن أبناء أشقائها الثلاثة وأسرهم في العمارة (البرج) الذى تمتلكه السيدة وهم له من بعد وفاتها لوارثون، ألحّوا جميعاً في طلبهم ووافقت السيدة تحت ضغط وإلحاح وبعد أن أقسموا عليها بأغلظ الأيمان وبرحمة آبائهم الثلاثة وخالد الذكر جدهم، ورغم صلابتها وفتوة عقلها ورجاحته وعنادها المعهود إلا أنها رضخت، ربما أنهم أدركوا بقصد أو بغير قصد أن ذاك الجبل مهما شمخ وأرهب الناظرين إلا أنها بشر تحمل في صدرها قلب عصفور رقيق يستشعر الضعف ويعرف معنى العفو حتى وإن طغى الآخرون.

هدأت أنّات الرعد واختبأ البرق في كبد السماء، دقائق وعاد التيار الكهربي والسيدة لم تبرح مكانها بعد، أدارت يدها بعد أن همّت وفتحت الشباك الشرقي، أمسكت بشرائحه الحديدية القائمة التي تنطق بالصمود وارتشف أنفها عن عمد زمهرير البرد القارص ربما لاستحضار عافية لم ترفق بها الأيام أو لتنقية ذهن لم يقوى عليه الزمن، استدارت خطوة فالأخرى مدت يدها إلى جيبها (السيّالة) وأخرجت سلسلة مفاتيحها وهمّت بفتح دولاب الفضة وأخرجت علبة الذكريات بكلتا يديها فقد كانت ثقيلة، تراجعت ووضعتها على الطاولة أمام ذاك الكرسي ومدت يدها تتفحص الصندوق وتنتقل إلى عالمها الذى تعشقه.

إن تكاتلت أصابع الغيوم تحجب الضوء عنك فابترها بلا أدنى رحمة وافتح نافذه جديدة ترى منها صفحة السماء الصافية فيهدأ بالك وتستعيد النبض من جديد.

الصندوق ملئ بالذكريات ولكل ذكرى من الشهد والدموع سنوات، فلا كل الأيام انتصار ولا العمر كله انكسار.

أمسكت بخاتم أبيها الذهبي الضخم الذى يزن حوالى (٣٠) جرام عيار٢٤ وقبّلته كما قبّلت يدى أبيها في أخطر مشهدين في حياتها يوم طلاقها ويوم أن قضى نحبه.

كان أبيها الشيخ (عطاالله محجوب)عيناً لأعيان الناحية والنواحي المجاورة ورث عن أبيه عشرة أفدنه واستطاع بكدّه وعمله بالتجارة أن يُضاعفها إلى خمسين في أقل من عشرين عام، بالطبع لم تكن الأرض الزراعية هى بوابته الأساسية نحو الثراء ولكن ألمعيته قد أهدته إلى تجارة المواشي والدواجن ومنتجاتها من لبن وسمن وزبد وبيض وبيعها لبيوت الأثرياء في القاهرة، اعتمد في ذلك في البداية على صديقه الأستاذ (غبريال متّى) وكيل وزارة الزراعة في المديرية، كان غبريال (صاحب صاحبه) وقدّمه إلى البشوات والبهوات وصار عطاالله يمتلك شبكة علاقات تكفى لأن تكون سوقاً رائجاً لبضاعته ومصدراً للمال الوفير.

كان الرجل فاضلاً بحق، ثراؤه لم يمنعه يوماً من إخراج حق الفقير ووجاهته وعنفوانه لم يجعلاه يوماً يتوانى عن نصرة المظلوم حتى أنه إن جار أحد على آخر فكان المظلوم يلهث مردداً (والله لأجيبلك سيف عطاالله).

عشر سنوات بعد زواجه حُرم الرجل من الخلفة، وفى العام العاشر رُزق بأنثى وكعادة رجال (زمان) لم يفرح كثيراً إلا أنه وبما آتاه الله من بأس شديد داوى جرحه بيديه وأسماها (ست البنات) حتى يكون لها نصيبٌ من اسمها فلا تكون مجرد أنثى عادية تمر مرور الكرام في حياة أهل القرية بل لابد أن تكون (ست البنات) وتاج النساء بين الجميع.

بعد مولدها تتابعت السنون عاماً بعد آخر وحُرم الرجل ثانية من الخلف حتى ظن في نفسه أنها كانت شؤماً عليه لكن هذا لم يمنعه من قسوة فرضها عليها ظناً منه أن نجاتها فيها وأحياناً رحمة ودفء ظناً أن حياتها فيها.

عشر سنوات أخرى ورُزق بـ طاهر وقبل انقضاء عشرة ثالثة كان قد رُزق بعبدون ثم فؤاد.

أتمت (ست البنات) عامها العشرين وفؤاد لا زال يُحمل على الكتف سقطت الأم من أثر حمى النفاث بعد ولادته، صارت ست البنات أماً لفؤاد، لم تنظر إلى عمرها الذى مضى فالعشرون عاماً في عمر الصبايا وقتها كانت كفيلة أن تمنحها لقب (عانس) كانت راجحة العقل والقلب فلا اهتمت

يوماً بثرثرة الصبايا في حقول الزرع والحصاد ولا عند اجتماعهن وهن يملأن جرار الماء من الترعة القبلية.

مرت أيامها بعد العشرين هادئة راضية واطمأن قلبها إلى أن كل شيء في هذه الحياة (قسمة ونصيب) وكلما هاجت بداخلها ثورة الأنثى نحو الزواج والأبناء كغيرها من باقي النساء كان يَغلب عليها (سيف عطا الله) الذى تقلّدته في معاملاتها مع الآخرين، وكلما نظرت في مرآتها وجدت منطقية في تأخر زواجها كانت تدرك معنى الجينات وعلم الوراثة وهى بالكاد تكتب وتقرأ، أدركت أن في سمرة بشرتها وانفلات طولها بما يفوق الأخريات وتشابك حاجبيها واستواء صدرها وجحوظ عينيها، أدركت أن ملامح (الجيل الأول) التي نُسخت بها هيئتها كأبيها تكفى لـ ألاّ يعيرها أحدٌ اهتمام بغرض العاطفة والزواج وأيقنت أن براعة الحاوي لا يضيرها لذعة من النيران.

أنت تدبّر والله يقدّر، حين أتمت ست البنات الرابعة والعشرين كانت على موعد مع ما ظنت أنه المكافأة والنجاة، خفق قلبها ورفع رايته البيضاء سراً أمام النظرات الثاقبة لعلاّم (ابن صاحب الدكان)، كان (مصطفى مختار) يرسل ابنه (علاّم) إلى بيت الشيخ عطاالله ليزودهم أسبوعياً بما يحتاجونه من مواد تموينية وغيرها، اعتاد الطفل الصغير الذهاب إلى بيت الشيخ عطا الله وتعوّد عليه فصار يلعب مع طاهر رغم أنه يكبره بست سنوات، ذهبت طفولة (علاّم) وحلّت مراهقته وأتمها ودخل في عمر العشرين كبر عمره ولم تنقطع عاداته ومن أهمها العبث مع من يصغرونه وعزف النظرات لست البنات على كل لون وبشتى الألحان.

الحرمان سيف سُلّط على قلبها وصار أحدّ من سيف عطا الله، خرّ قلبها ساجداً في محراب نظراته وسكنت جوارحها مخدرة من فرط التفكير فيمن فض عذرية قلبها، صارت في حلمها كفراشة تحلّق في سماء العشق، كولي ناجى ربه فاستجاب له في الحال.

يوم أن ذهب (مصطفى مختار) لطلب يديها لابنه (علاّم) كان يوماً ثقيلاً على الرجل لكن ما هدّأ من روعه طمـأنة علاّم له أنه أتم الموضوع مع

صاحبة الشأن وأن أباها لن يرفض لها أمنية، ومن ثمّ حينما أخبر عطا الله ابنته أظهرت خجلاً مصطنعاً لأنها على يقين أن الرجل لا يستطيع أحد لَيّ ذراعه حتى لو كانت هي ذاتها واستدرجته حتى خلقت حواراً عن علاّم وانتهى بها الأمر أن أقنعته أن الناس جميعاً فيهم الخير والبركة والمهم العمل الجاد وإن قل ثمره والقرش الحلال وإن نقص عدده (ناهيك يا أبى عن أن أحداً عاقلاً لن يرض بي) وقد كان تزوج علام بست البنات.

مضت أيام العروس الأولى في سعادة وانتصار ومع تقدم الليالي ذاقت لوعة الحسرة والانكسار، اصطدمت بواقع مر فعلاّم لا توقَد له نار ولا يبدو عنتراً في تلك الدار وما زال يكرر على سمعها (ولاد الكلب ربطوني).

طال الصبر بالشريفة واحتملت سوطاً جديداً بأيدي الأيام، ومضى نحو ستون يوماً (محلك سر) وذات ليلة بينما كانت تنصحه بزياره طبيب البندر احتد عليها وألقى من فمه (احمدي ربنا يا بايرة يا بنت الكلب)، لحظات وانتفض حاجبيها وأمسكت (القلة) بيدها ودقتها على رأسه كما يُدق المسمار في قلب الخشب سال الدم من رأسه وقِيل أن كيلو بن لم يكفِ لكتم جرح علاّم.

يومان وحدث الطلاق، وأدركت ست البنات أن قوتها في عذريتها وصارت آمنة مطمئنة وأنه لم يعد ينقصها شيء وهنا استوى لها مُلك أبيها وصارت بحق (سيف عطا الله)، ولم يمض شهر إلا وباع مصطفى مختار دكانه والستة قراريط التي كان يمتلكها وغادر إلى البندر.

أربع سنوات ومات الشيخ عطا الله تاركاً ميراثاً كبيراً لأبنائه والسيف تملكه (ست البنات) وحدها، تحكم فتُطاع وتأمر أحداً فينصاع ومن خرج عن مشورتها فيُرد له العصيان ألف صاع.

شهران بعد موت الرجل وصار (طاهر) في عمر الثمانية عشرة، فأمرت بتزويجه فلما عاتبها على استحياء لموت أبيهم نهرته بحسم (الحزن بتاعنا والفرح بتاعنا) اختارت له بنت عمدة إحدى القرى المجاورة كانت فاطمة فائقة الجمال لكنها كانت حادة الطباع، ورغم ما علمته ست البنات عن طباعها إلا أنها كانت على يقين أن الأسد القابع في عرينه يصير حملاً أمام سيف عطا الله.

حينما أتم (عبدون) هو الآخر الثمانية عشر قامت بتزويجه من البندر ابنة أحد التجار الذين كانت تتعامل معهم، كانت (رقية) أقل من (فاطمة)

في الجمال بقليل لكنها كانت الأذكى والأكثر جذباً للناس من حولها وكان ثغرها لا يتوقف عن التبسم، فنالت احتضان ست البنات حتى أنها كانت تصطحبها معها إن زارت القاهرة إلى جانب خادمتها وسرها (نظلة).

وكما جرت عادتها فقد زوجت ست البنات فؤاد وليد قلبها من قريبة لهم من أمها من قرية مجاورة، كانت (فُتنة) اسم على مسمى فكل من رآها يُفتن بهدوء لم يعهده أحدٌ في هذا البيت، كان بياض وجهها يشع خجلاً إن تحدثت مع أحد ولا تسمع لها صوتاً إلا حينما يُنادى عليها أو تُؤمر بشيء فيقتضب جوابها عند (نعم وحاضر ومن عنيا) حتى في جلسات السمر كانت تستمع ولا تتحدث إلا نادراً فإن ضحكت كأن في قهقهاتها عازل وإن بكت وكأن صوتها يخجل من البوح بالبكاء.

صارت ست البنات ذاك السيف المسلط على الجميع في الحق كما كان عطا الله، سيدة لدار تحوى ثلاث أسر كانت تحكم بينهم بعدل ورحمة أما قلبها فتعلق بإحداهن عن الأخرى ولم يعكر صفوها أحياناً سوى فاطمة زوجة طاهر إلا أن بأس ست البنات كان مفعوله سريعاً ولا تستطيع فاطمة ولا ألف فاطمة أن تمنعها من السير قدماً في رحلة قد كُتبت عليها.

ومن غرائب القدر أن كل من الرجال الثلاثة قد تأخروا في الإنجاب لسنوات طويلة وحينما أذن الله أنجبوا بنفس ترتيب أعمارهم وصار لكل منهم ذكر واحد وكانوا جميعاً من مواليد الستينيات، رُزق طاهر بعماد فقد كانت فاطمه مغرمة بعماد حمدي منذ أن رأته في السينما من أول مرة حينما كانت تزور القاهرة وظلت تُلّح كل فترة على زوجها للذهاب إلى القاهرة لمشاهدة أفلام عماد حمدي لكنها هدأت بعد أن صار لديها عماد طاهر.

كانت رقية كعادتها لمّاحه وجابرة للخواطر وأقسمت على زوجها أن أحداً لن يسمى ابنها إلا عمتها (ست البنات) فاختارت له اسم عبدالله، وكان أوفر حظاً من ابن فاطمة في يوم سبوعه ويوم (طهوره).

أما فؤاد فقد اختار لابنه اسم (فاروق) لسببين أولهما موسيقى الاسم وثانيهما أنه نال قسطاً أكبر من التعليم وكان له آراء على غير الغالبية من أبناء جيله، ولا بأس فقد أسماه أباه فؤاد عن عمد وهو يسمى ولده فاروق عن عمد أيضاً، وأما فُتنة حينما أخبرها فؤاد بالاسم ارتسم ثغرها كطفلة أعطوها حلواها وردت (حاضر يا فؤاد).

دخل بيت عطا الله ستينيات القرن الماضي في مرحلة الاستقرار التام كل غرفة تحوى أسرة وكل أسرة تختلف في أيدولوجيتها حتى وإن كانت أيدولوجية فطرية لكن خارج الغرف الثلاث سيف عطا الله يحكم وأحياناً يتم استبداله بقلب ست البنات.

الصدف لا تأتى من الصدفة ولكن القدر هو وحده الذى يُقلّب ثم يعيد ترتيب الأشياء والأحداث فيبدّل ويرفع ويخفض ويمنع ثم يصفح ولا راد للقدر ولا عجب أمام مشيئة الله.

مات الرجال الثلاثة في عامين ولكن بترتيب عكسي، فؤاد سقط شهيداً في ٦٧ وعبدون سقط غريقاً في ٦٨ ثم انتهى الأمر في أواخر نفس العام بمرض طاهر لشهر ثم مات.

أُسدل الستار على أيام الاستقرار وسقطت الأعمدة الثلاثة التي رُفع عليها بيت عطا الله وصار سيفه بارداً ملجماً أمام قوة السماء وصار الصبر مطلب ست البنات الوحيد وأملها في عامين اختنق فيهما زئيرها وقُصم ظهرها ومن تلك اللحظة صار الفجر عادتها وعبادتها وصارت صلاته

بوابتها نحو التهام الصبر واستعادة عافيتها التي تُغِير عليها الأيام ومن وقتها لم تنقطع عن صلاة الفجر إلا لظرف طارئ بل لظرف قاتل.

من يطلب الرحمة فالله أرحم بعباده ومن طلب العون من ربه فالله هو الرؤوف، أدركت أن الحياة ما فعلت بها سوى أن أعادتها إلى نقطة البداية كي تستعيد ذكرى تربية إخوانها الراحلين في شخص أبنائهم الثلاثة ولكن الأمر الآن قد صار أثقل والمهمة قد صارت أصعب لأن عمرها قد فارقته أوراق كثيرة في أكثر من خريف، كما أن الذكور الثلاثة مُعلّق في رقابهم أمهاتهم اللاتي قد صرن من الأرامل، لكن بعد تدبير وإحكام للعقل أدركت أن الحل في النساء الثلاث هو تهديدهن إن لزم الأمر بالميراث فكل الأملاك كانت باسمها وكأن عطا الله لم يأتمن غيرها على ميراث الجميع، ولكن المفاجأة أن الأمر لم يصل إلى ذاك الحد لأنهن قد أيقنّ ذلك سواء بالرضى أو على غير رضاهم (فاطمة تحديداً) وسريعاً قدمت النساء الثلاث فروض الطاعة بعد أن استلت ست البنات سيفها تحسباً لأى تمرد وحتى تبدأ رحلتها من جديد كما ترى وكيفما كانت ترى.

طابت الحياة رغم أنف الجميع ومضت السنون والذكور يكبرون أمام عمتهم تَقرُّ عيناها بهم ويزدادون بها أمناً، لم تخلُ الحياة بالتأكيد من مشاجرات النساء الثلاث بسبب الأبناء، أو خلافهن مع روحية بنت نظلة رحمها الله، أو بسبب الطعام الذى زاد أو قل ملحه، كل هذا كان في إطار المنطق إذن فلا ضرر ولا ضرار طالما أن الجميع يهاب سيف عطا الله ولا يستطيع إرجاعه إلى غمده الأخير.

الزمهرير الذى يأتي من الشباك الشرقي كان لازماً لتهدئة النار المتأججة التي حلت بست البنات كلما فتحت الصندوق لكن مع هروب مارد الذكريات من الجسد فإنه يستعيد توازنه، وهنا ألهب الزمهرير جسد السيدة العجوز فالقلب يقاوم لأنه لا يعرف الشيبة لكن الجسد أبداً لا يقاوم إلا بمقدار السنوات التي سقطت من شجرة العمر .

همّت بإغلاق الشباك ثم استدارت متلفحة بالشال وأغلقت الصندوق بإحكام ووضعته في الدولاب وأغلقته هو الآخر بإحكام ونظرت لساعة الحائط فوجدت أنه تبقى على صلاة الفجر أكثر من ثلاث ساعات فعادت على قدميها بخطوات هادئة دون أن تتحسس الجدران، وأعادت فتح باب

غرفتها ووضعت الشال خاصتها على الكرسي الفوتيه ثم أغلقت المصباح وذهبت إلى سريرها على مهل واستلقت ووضعت مخدتين كما اعتادت تحت رأسها ومدت يدها إلى الكومودينو بجوارها وأشعلت الأباجورة الخافتة ونظرت إلى الحائط عن يمينها واستأنست بصورة فوتوغرافية معلقة تجمع الذكور الثلاثة في طفولتهم أما الآن فقد صاروا الدكتور عماد طاهر والمهندس عبدالله عبدون والأستاذ فاروق فؤاد.

دقائق معدودة وخارت قواها أمام سلطان النوم

أولئك الذين يعشقون الشتاء أدمنوا لياليه الطويلة، يذوبون سهداً في الداخل والأمطار قد أوحلت الشوارع في الخارج، يترنمون بلذة احتساء كوب القهوة ويتناسون أطرافهم التي إن لامستها مسّتك الرعشة، يجعلون من ماضيهم مسبحة لا ينفرط عقد حباتها أبداً رغم أن حاضرهم فيه ما يكفى للانشغال، هؤلاء حاول ألا تتعمق بداخلهم كثيراً لأن سؤالك عن حالهم يقابله جواب مكتوم تارة ورد محسوم تارة أخرى فلا تكن فضولياً مع من كتم ولا فوضوياً مع من حسم وقف على شاطئ الحياة بحذر فلا تخدعك أمواجه فتندم ولا يمسّك التهور كي تسلم.

ذخّات قليلة لا زالت تداعب الأرض في الخارج لكنها لا تدعو إلى لقلق حتى أن الكهرباء لم تنقطع مرة ثانية بسببها، لا زالت ست البنات في خلودها على السرير الحديدي (أبو عمدان) الذى لا زالت عمدانه تبرق فالشيء الفاخر إن مضت عليه الأيام وبقليل من الاهتمام يظل على أصله.

كانت لا تستريح إلا إذا استلقت على ظهرها وتحت رأسها مخدتين ومن رآها قال أنها غالباً لا تتقلب إلا نادراً، أُذِّن لصلاة الفجر فنهضت صاحبة المائة عام بحذرها المعهود كما اعتادت واستقرت على الفوتيه لدقيقتين تتمتم بالاستغفار وقد أشعلت الأباجورة ثم نهضت وأشعلت المصباح الكهربائي وانتعلت (شبشب الحمام) المحفور من نعله حتى لا تنزلق قدماها وسارت بعد أن فتحت الباب خطوات قليلة فالحمام بجوار غرفتها مباشرة استعاذت من الشيطان ودخلت وجلسات على كرسي خشبي ارتفاعه أقل من ثلاثين سنتيمتر ومدت يديها إلى الصنبور المنخفض فتوضأت وعادت كما أتت فتقدمت على مهل إلى السجادة المفروشة دائماً في ركن بالغرفة خلا من كل شيء إلا من سجادة الصلاة وأدت الفرض جالسة إلا أنها كانت تحرص على السجود، ختمت صلاتها وبدأت في وردها اليومي

من الدعاء (بالاسم) لما ظنت أنهم أحوج إلى دعائها، تبدأ بأبيها الذى أخذت منه أكثر مما أخذت عنه، شاركته الملامح والطباع استظلت بظله حياً وصارت سيفاً كسيفه بعد الممات، كانت ترى أنه من فضل الله عليها أن جعل أبيها يتفطن ويُغلّب فيها (عن عمد) ذكورتها على أنوثتها.

بكت كثيراً في دعائها (طاهر وعبدون وفؤاد) حينما كان يأتي دورهم هنا يلمع بريق شيخوختها في عينيها الضيقتين وتسمع أنّات وجزع كجزع الطفولة تجويداً على أحبالها الصوتية الهرمة فتردد منتحبة (آه يا كبدي).

ترحَّمت كثيراً بانتظام ودون سهو عمن عاوناها نظلة وابنتها روحية ودعت بإخلاص للحفيدة خديجة، استأنست بهن حينما أغارت عليها فرقة الأيام وأوصلوا ما بقى من شراينها بالحياة، كان سيف عطا الله عوناً صادقاً لأسرهن وخير معين لهن على الحياة فمن يُقدّر الأرزاق عادل وكل رزق بميقات.

لم تتناسَ في الدعاء زوجات إخوانها الثلاثة دون أن يُشحن صدرها بكيد فاطمة أو تُميّز فُتنة عن رقية كان دعاؤها لهن مقتضباً بالهداية وراحة البال.

كان أبناء إخوانها الثلاثة مسك الدعاء وخاتمته، فالأول والأخير لا يُنسى وما بينهما قد تشوبه غفلة، أفردت لهم من دعائها الكفاية ولأبنائهم وزوجاتهم بعد أن صاروا أصحاب أُسر مستقلة، وبعد أن تنتهى من دعائها لا تمر نصف ساعة إلا وخديجة تطرق الباب بصحبة زوجها الذى اعتاد توصيلها يومياً وهو ذاهب للسوق لبيع (البوظة) ولهذا كانت ست البنات تحرص أن تكون على الكنبة المجاورة للباب وتشغل ذاك الوقت بالتسبيح والاستغفار.